تفسير سورةُ الشعراء
من آية (160) إلى آية (175)
اللقاء التاسع

المعنى الإجمالي من آية (141) إلى آية (159):

يحكي اللهُ تعالى جانبًا مِن قصةِ صالحٍ عليه السلامُ معَ قومِه، فيقولُ: كذَّبتْ قَبيلةُ ثمودَ بجَميعِ رُسُلِ اللهِ، إذْ قال لهم أخوهم في النَّسَبِ صالحٌ: ألَا تتَّقون اللهَ، وتخافونَ عِقابَه، إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه، أبَلِّغُكم إيَّاه بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ، فاتَّقوا عِقابَ اللهِ وسَخَطَه، وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم جَزاءً ولا ثوابًا؛ ما ثوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

أتَظُنُّون أن تُترَكوا متنعِّمينَ في هذه الخَيراتِ آمِنينَ؛ في بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ، وزُروعٍ ونَخلٍ ثَمَرُها لَيِّنٌ ناضِجٌ، وتَنحِتون من الجِبالِ بُيوتًا لكم حاذِقينَ بنَحتِها؟! فاتَّقوا عِقابَ اللهِ وسخَطَه وأطيعوني، ولا تُطيعوا أمرَ المسرِفين المتجاوِزين الحَدَّ في الكُفرِ والعِصيانِ، الذين يُفسِدون في الأرضِ ولا يُصلِحون أنفُسَهم ولا غَيرَهم.

قال قومُ صالحٍ ردًّا عليه: إنَّما أنت مِن المسحورينَ، تَهذي بكَلامٍ لا معنى له، ما أنت إلَّا بشَرٌ مِثلُنا، فأْتِ بحجَّةٍ تدُلُّ على صِحَّةِ قَولِك إن كنتَ مِن الصَّادقين حَقًّا.

فقال صالِحٌ لهم: هذه ناقةٌ جعَلَها اللهُ لكم آيةً تدُلُّ على صِدقي، لها حَظٌّ من الماءِ في يومٍ لا تُشارِكونَها فيه، ولكم حظٌّ مِن الماء في يومٍ لا تشارِكُكم هي فيه، ولا تَمَسُّوا هذه الناقةَ بأذًى فيُصيبَكم عذابُ يومٍ عظيمِ الشَّدائدِ.

فما كان مِن قومِ صالحٍ إلَّا أن ذَبَحوا النَّاقةَ فأصبَحوا نادِمينَ على فِعلِهم، فأهلَكَهم اللهُ بالعذابِ الذي حذَّرَهم إيَّاه نبيُّهم.

إنَّ في إهلاكِ قَومِ صالحٍ لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً على صِدقِ صالحٍ، وما كان أكثَرُ قَومِ صالحٍ مُؤمنينَ باللهِ ورَسولِه، وإنَّ ربَّك -يا مُحَمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿160﴾﴾

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ) أي: كذَّبت جماعةُ قومِ لُوطٍ بجَميعِ رُسُلِ اللهِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ [الحج: 42، 43].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿161﴾

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ) أي: حينَ قال لهم أخوهم لوطٌ: ألَا تتَّقون اللهَ، وتحذَرون عِقابَه.

موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: جُعِلَ لُوطٌ عليه السَّلامُ أخًا لقومِه، ولم يكُنْ مِن نسَبِهم، وإنَّما كان نزيلًا فيهم، وهو ابنُ أخي إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ولكنَّه لَمَّا استوطَنَ بلادَهم، وعاشَرَ فيهم، وحالَفَهم، وظاهَرَهم؛ جُعِلَ أخًا لهم، وقال تعالى في الآيةِ الأُخرى: وَإِخْوَانُ لُوطٍ [ق: 13]، وهذا مِن إطلاقِ الأُخُوَّةِ على مُلازَمةِ الشَّيءِ ومُمارَستِه.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: دَلالةٌ على أنَّ التَّائبَ مِن عملِ قومِ لوطٍ مِن الجانبين، إنْ تابَ تابَ اللهُ عليه؛ فإنَّهم كانوا يفعلونَ الفاحشةَ بعضُهم ببعضٍ، ومعَ هذا فقد دعاهم جميعَهم إلى تقوى الله والتَّوبةِ منها، فلو كانت توبةُ المفعولِ به أو غيرِه لا تُقْبَلُ، لم يأمُرْهم بما لا يُقبَلُ.

يجب عدم اليأسُ والقنوط من مغفرة الله ورحمته؛ مهما عظم الذنب، فلا يظنّ العاصي أنه قد هلك وخاب وخسر، ولا يقطع على نفسه باب الرجاء، ولا يسدّ على نفسه باب الأمل في عفو الله والطمع في مغفرته ورحمته، فيترُك العمل، ويَخلد إلى الخمول والكسل، ويخوض مع الخائضين، ولا يسلك طريق التائبين، فالله -سبحانه وتعالى- يقول: (قلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أسْرَفوا عَلى أنْفسِهمْ لا تقنَطوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جَمِيعًا إنَّهُ هُوَ الْغفورُ الرَّحِيمُ) [الزمر: 53]، يقول ابن كثير -رحمه الله-: "هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العُصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ بأنّ الله -تبارك وتعالى- يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر".

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿162﴾

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحْيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأبلِّغُكم ما أُرسِلتُ به إليكم بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ. موسوعة التفسير

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿162﴾

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه. موسوعة التفسير

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿164﴾

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ. موسوعة التفسير

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) أي: ما أرجو ثَوابي إلَّا مِن اللهِ الخالِقِ الرَّازِقِ، المالكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ خَلقِه. موسوعة التفسير

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿165﴾

(أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) أي: أتَنكِحونَ الذُّكورَ مِن النَّاسِ؟! لم يَسبِقْكم إلى ابتِداعِ هذه الفاحشةِ أحدٌ. موسوعة التفسير

⇦قال ابن حيان: استِفهامُ إنكارٍ وتقريعٍ وتوبيخٍ.

⇦والإتيانُ هنا: كِنايةٌ عن وَطْءِ الرجالِ.

وقال الزمخشري: (أراد بـ الْعَالَمِينَ: الناسَ، أي: أتأتونَ مِن بينِ أولادِ آدمَ عليه السلامُ -على فَرطِ كثرتِهم، وتفاوتِ أجناسِهم، وغلَبةِ إناثِهم على ذكورِهم في الكثرةِ- ذُكْرانَهم، كأنَّ الإناثَ قد أعوَزْنَكم!).

وقال ابنُ كثير: (نهاهم عن معصيةِ الله، وارتكابِ ما كانوا قد ابتدعوه في العالَمِ، ممَّا لم يسبِقْهم الخلائقُ إلى فِعلِه، مِن إتيانِ الذُّكرانِ دونَ الإناثِ).

قال ابن عاشور: تنبيهٌ على أنَّ هذا الفعلَ الفظيعَ مخالِفٌ للفِطرةِ، ولا يقعُ مِن الحيوانِ العَجَمِ! -وذلك على قولٍ في التفسيرِ- فهو عملٌ ابتدعوه ما فَعَله غيرُهم، ونحوُه قولُه تعالى في الآيةِ الأخرى: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ [العنكبوت: 28].

كما قال تعالى: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ [الأعراف: 80، 81].

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ﴿166﴾

(وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ) أي: وتَترُكونَ ما خلَقَه لكم ربُّكم مِن نسائِكم، وقد أحَلَّ لكم الاستِمتاعَ بهنَّ. موسوعة التفسير

ففي قولِه: مَا خَلَقَ لَكُمْ: ⇦ إبهامٌ قد أراد به أَقْبالَهنَّ، وفي ذلك مُراعاةٌ للحِشمةِ والتصَوُّنِ.

⇦قال ابن عثيمين: فيه جوازُ الاستِمتاعِ بالزَّوجةِ استمتاعًا مُطلَقًا ما عدا: الدبرَ، والفرجَ في الحيضِ.

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) أي: بل أنتم قومٌ مُجاوِزونَ الحَدَّ في معصيةِ اللهِ، وتَتجاوزونَ ما أحَلَّه لكم ربُّكم إلى ما حَرَّمه عليكم. موسوعة التفسير

⇦بل لإضرابِ الانتقالِ مِن مَقامِ الموعظةِ والاستدلالِ إلى مَقامِ الذَّمِّ؛ تغليظًا للإنكارِ بعْدَ لِينِه.

قال البقاعي: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ أي: تركتُم الأزواجَ بتعدِّي الفعلِ بهنَّ، وتجاوُزِه إلى الفِعلِ بالذُّكرانِ، وليس ذلك ببِدْعٍ مِن أمرِكم؛ فإنَّ العدوانَ -الذي هو مجاوَزةُ الحَدِّ في الشرِّ- وَصْفٌ لكم، أنتم عريقونَ فيه؛ فلذلك لا تَقِفونَ عندَ حَدٍّ حَدَّه اللهُ تعالى).

وقال ابنُ عثيمين: (قولُه: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ «بل» للإضرابِ، والإضرابُ هنا كأنَّه قال: لا تأتون الذُّكرانَ فِطرةً ولا عملًا عاديًّا محبوبًا إلى الفِطَرِ، ولكِنَّ الذي حمَلكم على هذا هو العدوانُ المجَرَّدُ -والعياذُ بالله- متجاوِزينَ الحلالَ إلى الحرامِ، فبَيَّن لهم لوطٌ عليه الصلاةُ والسلامُ أنَّ ما فعَلوه أمرٌ مُستنكَرٌ عقلًا، ومستنكَرٌ شرعًا وعُرفًا؛ لأنَّ العدوانَ لا شَكَّ أنَّ كُلَّ أحدٍ يُنكِرُه، وهؤلاء مُعتَدُونَ).

🗐وقال ابنُ عثيمين: أنَّ مِن بني آدمَ مَن تُقلَبُ طبيعتُه وتُصرَفُ حتى يَستحسِنَ الخبيثَ؛ لأنَّ هؤلاء هذا حالُهم.

⇦فيه دليلٌ على تحريمِ أدبارِ الزوجاتِ....

🗐قال ابن عاشور: إيماءٌ إلى الاستِدلالِ بالصَّلاحيةِ الفِطريةِ لعَمَلٍ على بُطلانِ عَمَلٍ يُضادُّه؛ لأنَّه مُنافٍ للفِطرة، فهو مِن تغييرِ الشَّيطانِ وإفسادِه لسُنَّةِ الخَلْقِ والتَّكوينِ، قال تعالى حكايةً عنه: وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ [النساء: 119].

🗐قال الشيخ عبد العزيز الطريفي حفظه الله، إن الفِطرة لم تبلغ في انحرافها إلا في زمانين: زمان نبي الله لوط عليه السلام وزماننا هذا وهو أعظم.

فنبي الله لوط دعا قومه لترك ما مسخوه من الفِطرة وهو أنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء وهي شهوة ونزوه وتنتهي، بينما زماننا لم يقتصر على إتيان الرجل للرجل كشهوه وتنتهي بل كزواج ونكاح وعقد بل وصلوا من الانحراف الى الزواج بالبهائم سواء وطء الرجل للبهيمة او وطء ذكران البهائم للنساء.

فكثير من المجتمعات تحتاج إلى الرجوع للفطرة أولاً حتى تُعامل كالبشر.

فكان عقاب قوم نبي الله لوط عليه السلام ﴿فَجَعَلنا عالِيَها سافِلَها وَأَمطَرنا عَلَيهِم حِجارَةً مِن سِجّيلٍ﴾ [الحجر]

هذا عقاب قوم لوط فكيف بعقابنا ونحن أسرفنا وطغينا أكثر من قوم لوط عليه السلام؟

الدلائل على انتكاس _الفِطرة:

١- قلب الحقائق.

٢- صعوبة إشباع الرغبات العاطفية والجنسية الفطرية والشرعية بالحلال.

٣- الشذوذ الجنسي.

٤- انتشار الدياثة.

٥- سلب الرجل وظيفته وتوليته للمرأة.

٦- استباحة الحرام وبُغض الحلال.

٧- ضعف سطوة الرجال.

٨- تمرد النساء واسترجالهن.

🗐وقال ابنُ عثيمين: ينبغي لِمعَلِّمِ النَّاسِ إذا ذَكَر لهم الأبوابَ الممنوعةَ أنْ يَفتحَ لهم الأبوابَ الجائزةَ؛ حتى يَخرجَ الناسُ مِن هذا إلى هذا؛ فبعضُ الناسِ يَذكُرُ الأشياءَ الممنوعةَ يقولُ: «هذا حرامٌ، هذا حرامٌ»، ولا يُبيِّنُ لهم الأبوابَ الجائزةَ، وانظرْ إلى لوطٍ عليه الصلاةُ والسلامُ قال لقَومِه: أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ؛ نهاهم عن الممنوعِ، وأرشدَهم إلى الجائزِ.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ﴿167﴾

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) أي: قال قومُ لوطٍ: لئِنْ لم تترُكْ -يا لوطُ- نَهْيَك وإنكارَك علينا إتيانَ الذُّكورِ، لَتكونَنَّ مِن المطرودينَ مِن قَريتِنا. موسوعة التفسير

قال ابنُ عاشور: (هدَّدوه بالإخراجِ مِن مدينتِهم؛ لأنَّه كان مِن غيرِ أهلِ المدينةِ، بل كان مُهاجِرًا بيْنَهم، وله صِهرٌ فيهم).

قال ابن عثيمين: كأنَّهم يُهدِّدونه بما هو أعظَمُ ترويعًا له، يعني: إنَّنا أخرَجْنا غيرَك، وستكونُ أنت مِن جملةِ المخرَجينَ؛ لأنَّ لنا قدرةً وسلطةً على إخراجِك.

كما قال تعالى: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [النمل: 56].

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ ﴿168﴾

(قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ) أي: قال لوطٌ لِقَومِه: إنِّي لِما تَعمَلونَه مِن الفاحِشةِ مِن المبغِضينَ له أشَدَّ البُغضِ، التَّاركينَ فِعْلَه، المنكِرينَ له. موسوعة التفسير

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿169﴾

(رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ) أي: قال لوطٌ داعيًا رَبَّه: ربِّ نَجِّني وأهلي مِن عذابِ قَومي حينَ تُنزِلُه عليهم. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: أنَّه لا غِنى لأحدٍ عن دُعاءِ اللهِ، وأمَّا قولُ بعضِ العارفِينَ الجاهلِينَ: «عِلْمُه بحالي، يُغني عن سؤالي»! فهذا قولٌ باطلٌ؛ فاللهُ يَعلَمُ بحالِ كلِّ أحدٍ، ومع ذلك ما زالتِ الرُّسلُ وأتْباعُهم يَدْعونَ اللهَ تبارك وتعالى.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿170﴾

(فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ) أي: فنجَّينا مِنَ العذابِ لوطًا وأهلَه كُلَّهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [الذاريات: 35، 36].

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ ﴿171﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن حيان: لَمَّا كانت زوجتُه مُندَرِجةً في الأهلِ، وكان ظاهرُ دعائِه دخولَها في التَّنجيةِ، وكانت كافرةً؛ استُثنيَتْ في قَولِه

(إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ) أي: إلَّا زَوجتَه العَجوزَ فلم نُنْجِها، وهَلَكَت مع قَومِها الباقينَ في العَذابِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [الأعراف: 83].

قال ابن عثيمين: أنَّ القُرْبَ مِن الأنبياءِ والأولياءِ لا يُغْني الإنسانَ شيئًا؛ لأنَّ هذه زوجةُ نبيٍّ، ومع ذلك هَلَكَت مع مَن هَلك، فكَوْنُ الإنسانِ قريبًا مِن إنسانٍ وَلِيٍّ للهِ، لا يفيدُه شيئًا؛ فأبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومع ذلك ما نَزَلَ مِن القرآنِ في أحدٍ مُعَيَّنٍ مِن الكُفَّارِ سِوى أبي لهبٍ عمِّ النَّبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ! وما نَزَل القرآنُ في تسميةِ شخصٍ بعَيْنِه مِن المسلمينَ إلَّا في زَيدِ بنِ حارثةَ -مَوْلًى مِن الموالي- مِن أبعَدِ ما يكونُ عن الرَّسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ، وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ قُربَ النَّسَبِ وقُربَ المصاهَرةِ وغيره لا يُغْني عن الإنسانِ شيئًا.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآَخَرِينَ﴾ ﴿172﴾

(ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآَخَرِينَ) أي: ثمَّ أهلَكْنا قومَ لوطٍ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: (التَّدميرُ: الإصابةُ بالدَّمارِ، وهو الهلاكُ؛ وذلك أنَّهم استُؤْصِلوا بالخَسفِ وإمطارِ الحجارةِ عليهم).

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ﴿173﴾

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا) أي: وأنزَلْنا عليهم حِجارةً مِن السَّماءِ. موسوعة التفسير

⇦قال ابن عاشور: سُمِّيَ ما أصابَهم مِنَ الحجارةِ مطرًا؛ لأنَّهُ نزَلَ عليهم مِنَ الجوِّ.

كما قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ [هود: 82، 83].

(فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) أي: فبئسَ المطَرُ الذي أمطَرْناه على قَومِ لوطٍ الذين أنذَرَهم نبيُّهم عذابَ اللهِ فكَذَّبوه. موسوعة التفسير

عذّب الله قوم لوط -عليه السلام- بثلاثة أنواع من العذاب، وهي:

❶الصيحة الهائلة؛ وهي صوت شديد مهلك من السماء.

❷جعل عاليها سافلها؛ حيث قُلبت قريتهم رأساً على عقب، فصارت عالي المدينة سافلها، فانقلبت القرية عليهم.

❸أمطر عليهم حجارة من سجيل؛ حيث أنزل الله -تعالى- عليهم حمماً وحجارةً صغيرة من طينٍ متحجّر ممزوجة مع النار، كالمطر من السماء تُلقى على رؤوسهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿174﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان في جَريِ المكذِّبينَ والمصَدِّقِينَ على نظامٍ واحدٍ مِن الهَلاكِ والنَّجاةِ أعظمُ عبرةٍ وأكبرُ موعظةٍ؛ أشار إلى ذلك بقَولِه

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً) أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ لوطٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ رَسولِه، وعِبرةً وعِظةً لِمُرتكِبِ الفواحِشِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ [الحجر: 75 - 77].

وقال سُبحانَه: وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [الذاريات: 37].

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

مُناسَبتُها لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان مَن أتى بعْدَ هذه الأممِ -كقُريشٍ ومَن تَقَدَّمَهم- قد عَلِموا أخبارَهم، وضَمُّوا إلى بعضِ الأخبارِ نظرَ الدِّيارِ، والتوسُّمَ في الآثارِ؛ قال مُعَجِّبًا مِن حالِهم في ضلالِهم **(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)** أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ لوطٍ مُؤمِنينَ. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (لم يكن فيها مؤمِنٌ إلَّا بيتُ لوطٍ وابنتاه).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿175﴾

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعد إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنَجِّي أتْباعَ رُسُلِه. موسوعة التفسير

قصة قوم لوط -عليه السلام- الذين آتوا بفاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين، فإبراهيم -عليه السلام- لما خرج من مصر، اصطحب معه في سفره لوطًا -عليه السلام-، ورجعا من مصر بمال كثير وخير وفير، ونزلا بأرض فلسطين تلك الأرض المقدسة ثم ضاقت بأنفسهما بقعة الأرض التي نزلاها، فنزح لوط عن محلة إبراهيم واستقر به المقام بمدينة سدوم، وقد كان أهلها ذوي أخلاق فاسدة ونوايا سيئة، لا يتعففون عن معصية، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة وأخبثهم سريرة، يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويتربصون لكل سار، فيجتمعون عليه من كل حدب وصوب، ويسلبونه ما حمل ثم يتركونه يندب حظه ويبكي ضياع ماله، لا يردهم عن ذلك دين ولا يصدهم حياء ولا يتعظون لواعظ ولا يستمعون لنصيحة من عاقل.

وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبق إلى ارتكابها من أحدٍ من العالمين، وتعاطوا محرمًا ما كان يدور بخلد أحد اقترافه، فكانوا يأتون الذكران من العالمين، ويتركون ما خلق الله لهم من النساء فلا يقربوهن.

وليتهم ستروا بليتهم أو حاولوا الخلاص من ثمارها والبعد عن شرها، ولكنهم كانوا يحملون الناس على مشايعتهم، ويدعوهم إلى الأخذ من قليبهم -القليب البئر- أي يعملون مثل عملهم، أو يشربون مما يشربون منه، وتمادوا في ضلالهم حتى فشت المنكرات بينهم وكثرت الموبقات بينهم، وأشربت قلوبهم حب الفاحشة، ولما أصاب القوم ما أصابهم، واستحبوا الضلالة على الهدى، وآثروا الغواية على الرشد، واستحوذ عليهم الشيطان يستميلهم إلى المعاصي ويزين لهم الشهوات.

أوحى الله إلى لوط أن يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ارتكاب هذه الجرائم، فدعاهم وأعلن بينهم رسالته، ولكن آذانهم لم تسمع لقوله، وعيونهم عميت عن الحق، وقلوبهم غلقت فاندفعوا في شرورهم،

واستمروا على فجورهم وتمادوا في طغيانهم، ولم يرتدعوا عن غيهم، بل حدثتهم نفوسهم الأمارة بالسوء، وسولت لهم عقولهم التي أضاعها العبث وتملكها الشر أن يخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فتوعدوه ومن معه بالإبعاد عن قريتهم، ولم يرتكب جرمًا إلا بعده عن مساوئهم، ولم يقترف إثمًا، إلا أنه تطهر من دنسهم ولم يسر في طريقهم ونأى عن قبائحهم، ودعاهم إلى صراط الله المستقيم.

ولما رأى منهم ميلاً وابتعادًا عن طاعة الله، خوفهم بأس الله وعذابه، فلم يأبهوا لتحذيره واستخفوا بوعيده، فألح عليهم بالعظات، وأنذرهم سوء العاقبة، ولكنهم لم يقلعوا عما كانوا فيه، بل ازدادوا تعلقًا به ورغبة فيه، وتحدوه أن العذاب لن ينزل عليهم، وأن الله لن ينزل بهم ما يستحقون من عقاب.

بعد ذلك سأل لوط ربه أن ينصره على هؤلاء القوم المفسدين، وأن يوقع بهم العذاب الأليم، وطلب إليه أن يخزيهم على كفرهم وعنادهم ويعاقبهم على بغيهم وفجورهم، فهم الداء الوبيل الذي يخاف انتشاره، والعضو المريض الذي لابد من استئصاله.

عاثوا في الأرض فسادًا، وصدوا عن سبيل الله، فاستجاب الله –عز وجل– دعاء لوط –عليه السلام– بعث ملائكته إلى هذه القرية الظالم أهلها، لينزلوا بهم ما يستحقون من عقاب، فنزلوا أولاً بدار إبراهيم –عليه السلام–، فحسبهم عابري سبيل، فقدم لهم خير ما يقدم للأضياف، ولكن أيديهم لم تمتد إلى قراه، فنكرهم وأوجس منهم خيفة، قالوا: لا تخافوا، ولم يزالوا بالمكان حتى بشروه بغلام عليم.

ثم سألهم إبراهيم: ما خطبكم أيها المرسلون؟! قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم لوط الذين لم يستجيبوا لدعوته فكانوا من المجرمين، وسننزل بهم عذابًا أليمًا وبأسًا شديدًا، فحزن إبراهيم لذلك، وأخذ يجادلهم في قوم لوط، ويرجو تأخير البلاء وتأجيل وقوع العذاب، ولعله كان يأمل منهم الإنابة إلى الله والإقلاع عما يرتكبون من الذنوب والرجوع عما يقترفون من الفواحش، وقد يكون إبراهيم –عليه السلام– قد خاف أن يُمس لوط بأذى وهو مؤمن منكر لما يرتكبون، فهو لا يستحق العذاب، فأمره الملائكة أن يهون على نفسه وأخبروه أن لوطًا لن يصيبه أذى ولن يمسه عذاب، وسيكون هو وأهله من الناجيين، إلا امرأته فإن هواها معهم ورأيها تبع لرأيهم.

ثم ذهبت الملائكة إلى أرض سدوم في صورة شبان حسان، وفيما هم يهمون بدخول هذه القرية عرضت لهم جارية تستسقي الماء لأهلها، فسألوها أن تضيفهم، فأشفقت من قومها عليهم، واستضعفت نفسها عن حمايتهم، وأرادت أن تستنجد بأبيها في الدفاع عنهم، فأمهلتهم حتى تذهب إليه فتستشيره في أمرهم، وأتت أباها، فقالت: يا أبتاه: أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط أصبح من وجوههم، وأخاف أن يعلم بأمرهم قومك فيفضحوهم، وفي بعض الروايات أنهم وجدوا ابنة لوط فدلتهم على بيت والدها، فلما رآهم لوط –عليه السلام– دهش لهذه المفاجأة، فأخذ يسأل ابنته يسألها عن شأنهم، ويستلهمها خير السبل التي ينتهجها، وأفضل الطرق التي يتبعها، ولعله قد تردد في السعي لاستقبالهم، وحار في قبول ضيافتهم، وحدثته نفسه أن يبعث إليهم بعذره، وأن يطلعهم على أمره، فيكفوه

مدافعته لقومه ويتركوه وشأنه، ولكن دفعته المروءة فاستصغر هذه الصعاب، وخرج إليهم خفية، يريد أن لا يراه قومه ويحاول أن يصل إلى ضيوفه قبل أن يعترضوا طريقه ويصدوه عن سبيله، فقد حالوا بينه وبين العالمين، وأمروه أن لا يستضيف أحدًا، تسلل لوط خفية وسار حتى التقى بالملائكة، فاستقبلهم ببشره، وتلقاهم بوجهه، ثم دعاهم إلى بيته، ولكن الوساوس جاشت في نفسه، والمخاوف دبّت في قلبه، فضاق ذرعًا مخافة أن يعلم قومه بنزولهم عنده، فيهّبوا مسرعين إليه وهو ليس في منعة منهم، أو عصبية تمنعه من اعتدائهم.

فلما دخل بهم داره مع كتمانه لأمرهم خوفًا أن يتسرب إلى القوم خبرهم، إلا أن امرأته كانت تساير القوم في طريقتهم، فأفشت خبرهم، وأعلمت قومها بأمرهم، فجاؤوا إليه مسرعين، وأقبلوا عليه مستبشرين.

وفزع لوط حين رأى القوم قد اجتمعوا يريدون الفاحشة ويرغبون في المنكر، فناشدهم تقوى الله، ودعاهم إلى ستر مخازيهم، والكف عن مساوئهم، ولكنهم جميعًا فجرة سفهاء لم يستمعوا توسله ولم ينزلوا على إرادته، فأغلق الباب دونهم وحال بينهم وبين ما يشتهون.

ثم أرشدهم إلى غشيان نسائهم اللاتي جعلهن الله حلالاً لهم، وحذرهم من عاقبة فعلهم، ومع ذلك لم ينتهوا، بل ازدادوا خبثًا وتشبثًا بما عزموا عليه من الفاحشة، وقالوا للوط: إنك تعلم أنه ليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة، وإنك لتعلم ما نريد.

إن لوطًا -عليه السلام- ضاقت به السبل من إصرار قومه على فعل الفاحشة، وسدت أمامه أبواب الأمل، فأخذه الكرب، فأخذ يفكر كيف يخلص ضيوفه من مكر قومه فقال: لو أن لي بكم قوة لاستطعت أن أمنع عدوانكم، وآمن شركم، وأقف في وجوهكم، ولو كنت في منعة وعزة لمنعت ولقومت معوجكم وألنت قناتكم.

لكن القوم قد أعمتهم الضلالة، وأصروا على فاحشتهم، فغشيه الحزن، وتملكته ثورة من الغضب، وحين يئس من ردّهم، ولما رأى الملائكة ما هو فيه من الوجد والحزن ردوا لهفته وسكنوا روعه وقالوا: يا لوط: إنا رسل ربك، جئنا لإنقاذك، ودفع العدوان عنك، فلن يصل هؤلاء الكفرة المفسدون إليك، وإنهم لمنهزمون.

ثم إن القوم بعد ذلك تولاهم الفزع والرعب فتولوا هاربين، متوعدين لوطًا بعد أن كشف الله عنه الغمة وأصبح لا يأبه لوعيدهم وتهديدهم.

ثم أمره الملائكة أن يسري هو وأهله بقطع من الليل -آي آخره- ويتركوا هذه القرية التي أذن الله -عز وجل- أن ينزل بهم العذاب، ثم نهوه أن يصطحب معه امرأته، فسيحل بها ما حل بالقوم لنفاقها ومشايعتها لهم، وأمروه أن يصبر ويثبت عند نزول العذاب بقومه، فلما خرج لوط وأهله وابتعد عن القرية جاءها أمر الله ونزل بها عذابه وزلزلت الأرض زلزالها، فصار عاليها سافلها، ثم غشيت بمطر من سجيل -

وهي الحجارة الصغيرة-، فأصبحت ديارهم خاليه، وبيوتهم خاوية بما ظلموا (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ).

من أعظم جرائم قوم لوط إتيان الرجال بدلاً من النساء، وقطع الطريق وإتيانهم المنكر من الأقوال والأفعال في مجالسهم، وتكذيب لوط -عليه السلام- الذي دعاهم إلى عبادة الله، وإلى الفضائل والأخلاق الفاضلة والأمور الطيبة بدلاً مما كانوا فيه من الكفر والفساد والضلال والخبث.

أسأل الله -عز وجل- أن يقينا وإياكم وكل إنسان أن يقع فيما وقع فيه قوم لوط من مفاسد ومنكرات، وأن يرزقنا وإياكم الطهارة والأخلاق الإسلامية الفاضلة. مسفر بن سعيد بن محمد الزهراني